نظرات في النفس والحياة

— ٨ —

نظرات مارسيل بروست

يتنمي مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسي المشهور هنري برجسون. وكتب مارسيل بروست على صعوبة قراءتها لا يستغنى عنها الباحث في النفس. وقد وجد نقاداً ومعجبين به. فمن نقاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب أي العدسة التي يُنظر بها إلى الأمور الصغيرة. فقال بروست انه ينظر بالتلسكوب أي العدسة التي ترى بها الأمور البعيدة والواقع أنه ينظر بالاثنين معاً بالمكرسكوب والتلسكوب. ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين اوستن الفرنسية، يعني القصصية الانجليزية المعروفة وهذا الوصف لا يشابه الحقيقة إلا كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ في بعض ملامحها على سبيل الفكاهة. وصحيح أنه يتفق وجين أوستن في ولعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس في القصص وان لكل منهما بصيرة سيكولوجية وإنهما قد يمتاز بالأمور الصغيرة ولكن بروست يتوغل في الأمور السيكولوجية أي النفسية توغلاً لا مثيل له. وقد نشأ مريضاً مستكلاً وقضى الثلث الأخير من حياته في بيته لمرضه. واتهمه ناقد آخر بأنه كان في أكثر قصصه مولعاً بحياة النبلاء والأغنياء ومن العمل بهم من الخدم وإنه لم يرَ الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس ولكن ولعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى. وإذا وصل في بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة في كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات. وقد نشأ لاهتمامه بين النساء ولعل ذلك أكسبه شيئاً من أسلوب النساء في التحدث عن جيرانهن والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت

تلك الأحاديث صغيرة وأعطاء تلك الأحاديث في بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها. ولكن القارئ إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه في بعض الأحايين من الدراسات النفسية التي تتخللها وبالرغم مما قد يعترض القارئ فيها من الملل فإن في بعض كتبه قطعاً لا يمل القارئ معاودة قراءتها. وقد يستطرد في تتبع البحث النفسي استطراداً بعيداً وله أسلوب شائق في وصف مناظر الطبيعة والناس. وقد اعترف سومرست موم القصصي في كتابه المسمى بالخلاصة، أنه شعر بملل شديد في قراءته كتاب (طريقة جرمانتيس) من كتب بروست، وقد شعرت بمثل هذا الملل ولعل من أسباب الملل أيضاً إن القارئ يود أن يقرأ عن حوادث هامة، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات وأحاديث أو بحث نفسي، أو يود أن يقرأ شيئاً من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحيوي. وقد ذكر هافلوك إيليس في كتابه المسمى رقصة الحياة وهو اسم رمزي مدحاً كثيراً لطريقة بروست في البحث النفسي ولا سيما في كتابه المسمى (في الأجمة المزهرة) وأحسب ان هافلوك إيليس كان مصيباً في اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى (طريقة سوان) ولكني أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأرواه أملأ لنفس القارئ. إلا إني أرى ان كاتباً مثل بروست لاينال الانصاف التام ولا يعرف مقدار بحثه في النفس إلا بقراءة كتبه كلها اذا كان ذلك من المستطاع. وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التي يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها. فاذا كان ذلك حقاً فهو يزيد في براعة فنه الذي به استخلص منها الحقائق النفسية العديدة.

ومن نظراته النفسية ما يلي: —

(١) كثير من الناس يرددون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذا كانوا لم يعرفوها من قبل ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هي أم خطأ، وإنما يرومون بترديدها واظهار الفهمة في ذكرها قد يقنعوا السامع انها آراؤهم وانهم قادرون على فهمها والحكم عليها.

(٢) قد يسوء رأي المتحدث في سامعه ولكنه مع ذلك يشركه في سماع ذم انسان آخر غائب، كأنما السامع خالياً من صفات الذم التي ذكرها، فيسرع سامعه الى التصديق والموافقة بشغف وخفة وبضحك وبمسرة كي يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة

وهو قد يعرف أن محدثه يغتابه كما اغتاب الغائب ويذمه في غيبته كما ذم الآخر. ولكن ذلك لا يمنعه من مشاركته في ذم المذموم ظناً منه ان موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه في المستقبل. وهذه منه محاولة خائبة ولكنها تتجدد وتبعث الأمل والزهو والارتياح.

(٣) في بعض الأحايين تبدر من انسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدي معروفاً غير متوقع فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير. ولعل شكرنا وارتياحنا تلهفاً إلى الاطمئنان من شره وارتياحاً لزوال توقع الشر منه أو سروراً وتعاظماً باختياره إيانا لعطفه وخيره وإن اختار غيرنا لشره. وهذا بالرغم من اننا قد نسيء الظن بالباعث الذي بعثه على الخير وهو شرير. ولعلنا لا نشعر بهذه الفهمة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير لأن العطف أمر مفروض ومتوقع من مثله.

(٤) من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه، تبدر منه فلتة صغيرة في أثناء إحكام الكذب وحبكه. وهو يظن ان سامعه لا يهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها. ولكن سامعه قد يتنبهها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سبباً في كشف كل كذبه وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأي فيه. وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فيُفاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع. وهذا كما يقال في المجرم الذي يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه ثم هو بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمراً صغيراً يدل عليه لا يفطن له ويكون السبب في كشف جرمه.

(٥) متى أقنع الانسان نفسه إنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على انسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أي عمل دنيء لإشباع حقده وارضاء غضبه إذ أي شيء لا يكون مُباحاً حلالاً للقديس الفاضل والملك الطاهر الذي يراه في نفسه

(٦) بعض المهذبين المثقفين إذا أدّوا خدمة أو أهدوا هدية فللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدباً وتلطفاً في العشرة، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قولهم مأخذ الجد فيوافقهم عليه بطريق مباشر او غير مباشر، إما من تبع

الذوق أو قلة العقل أو حبًّا للتعاظم فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أي خدمة أو صنع أي معروف.

(٧) قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة له في مدحه إلاَّ التعريض بسامعه كأنَّ المادح يريد أن يقول لسامعه إنه ليس على صفات المدح التي ذكرها في الممدوح. وقد يتفنَّن في إظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فيحتار السامع ويرتبك وقد يجاري المادح في مدح الممدوح لا رغبةً في مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجاري المادح خشية إذا لم يجاره ان يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة في الحديث وإنه خالٍ منها وأنه فطن إلى التعريض به وأنه يستحق ذلك التعريض به.

(٨) كانت السيدة فيردوران لا تدعو إلى منزلها من الضيوف إلاَّ من يوافقها على كل رأي مهما كان سخيفًا، وعلى كل قول مهما كان باطلاً محالاً، فلم يبق لها من الزوار غير المستخفين المستضعفين. وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لا يزورها الضيوف والزوار إلاَّ لأنها تدفع أجراً كبيراً لمن يزورها على زيارته لها. وبالرغم من أن ضيوف السيدة فيردوران كانوا يتمنون أن تدعوهم تلك النبيلة الثرية. وبالرغم من إنهم كانوا يعرفون ان الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجراً لمن يزورها قصة ملفقة باطلة، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحتفروا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها، ويستطيعون أن يصدقوا قولها عن تلك النبيلة الثرية. وكان يحلو لهم إدعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجراً لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدَّقوا، وهكذا تستطيع النفس ان تقبل المحال الباطل الذي لا يخفى بطلانه، إذا كان فيه ما يرضي زهوها أو حسدها أو حقدها أو حتى ما يُرضي إيحاء الموحي الباطل إذا رجت من ذلك الموحي بالباطل عطفاً أو خيراً أو ما يرضي أهواءها وخواطرها السائحة التي تستعز بها

(٩) لعلَّ من أسباب نسبة المُحدَّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة وهي طريقة تطهره من تلك العيوب في نظر بعض الناس كما يظن، وتعطيه لذة المعترف اعترافاً غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة في مباشرة عيوبه

التي ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك اللذة ومن غير أن يشطنزا إليها . وكل إنسان مشغول مهموم بصفات نفسه وميولها ، فتلفته تلك الصفات إلى مثلها في غيره أو يتوهم أنها لفتة، ويقنع نفسه ويخادعها في تلك الفتات وهو يحسب انه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم ما لا يزينه . وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة في نفس المحدث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها . وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث من حرفته أو مهنته لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أي شيء آخر، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم، وللمحامي والقاضي أن يتحدثا عن القضاء والقوانين ، وللتجار أن يتحدث عن التجارة ، وللزارع أن يتحدث عن الزراعة . وكذلك صاحب السيئة والعيب، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجمل والترفع .

(١٠) بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم ، فان كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة وقد تجده غريباً في النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة النادرة النفيسة غريبة في واد موحش قفر مجدب . وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس ، فان تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهي موجودة بالرغم من خفائها . وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسي إذا قرأ قصة مؤثرة يبكي لما حلّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه وهو قد لا يتورع في أعمال الحياة من أن يفعل مثل ذلك الظالم الذي أثار عطفه وأراق دموعه عند ما قرأ القصة . ولكن الانسان إذا قسا أو ظلم سوّغ عمله . فانه يعد نفسه دائماً عادلاً مهما كان قاسياً ظالماً ، ويقول ان القسوة قد تكون نوعاً من الرحمة . بمثل هذا القول يسوّغ المرء إتيان ما يجلب له منفعته أو يرضي نهمة نفسه بالرغم من جانب الرقة والعطف في نفسه .

(١١) كثيراً ما يقول إنسان لآخر يسرني ان أفعل كذا كي أسرك ثم يحسب انه قد أدّى له خدمة ، أو صنع معه معروفاً ، وما يهم السامع ليس ما يدعي القائل إنه يود عمله ليسره، بل ما يستطيع أن يفعله كي يسره . ولكن القائل يستطيع أن ينمي ذلك وأن ينمي

أنه لم يعمل ما يدعي انه يود أن يعمله كي يسر السامع ويكاد يقنع نفسه انه في الواقع قد صنع معروفاً وأدّى خدمة . والمجاملة في الكلام محمودة ولا شك، ولكن من غير المحمود ان يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب ان سامعه مدين له بالمعروف الذي يكاد يقنع نفسه أنه أداه.

(١٢) إذا وصف انسان انساناً آخر أمامك بمدح أو شرٍّ فإنك قد لا تصدق القائل ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الانسان الموصوف أو كلما فكرت فيه أو سمعت به أو اتصلت به أي اتصال . ولعلّ ذلك من طرق الإيحاء ولعلّ هذا التأثر يكون في الوصف بالشر أكثر مما يكون في الوصف بالخير لأن إثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلاّ إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت ان الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً .

(١٣) إن الانسان إذا حدّثه محدّث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر إذ أنه يفكر في نفسه حتى ولو كان مُحَلِّقاً في سماء التفكير النظري العام . وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهاً يغض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولا صلة لهم بموضوعه وبعضهم ترى في عينيه شيئاً من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدّث يريد بحديثه النظري العام الاشارة إلى شيء في أنفسهم لا يستملح .

(١٤) ليس الإفحام في المجادلة والمحاجة دليلاً دائماً على رجاحة رأي المناظر الذي أفحمك يفقد يُفحِمك المجادل فلا تستطيع الرد والقول، إذا كانت آراؤه لا اتصال لها بنفسك وعقلك أو لا حقيقة لها على الاطلاق . أما المناظر الذي فهو اذا أدلى بحُجّة ورأي راجح قد يستطيع أن يجد جانباً من عقلك يألف ذلك الرأي وان خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار ومن أجل ذلك كان « برجوت » اذا ناظرني أستطيع أن أرد عليه القول ولكن رأيه كان يلقح رأيي ويتداخل في نفسي وكانت طريقته في المناظرة أن يرد على قولي بما يخالف رأيي وكأنه لا يخالفه إلاّ في بعض الأمور دون بعضها فكان يصل رأيه برأيي مظهراً موضع الاتفاق، حتى ولو كان صغيراً ،وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف، فتكون

مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأيي ورأيه فصلاً تاماً .

(١٥) إن سرور المرء إذا فهمه وقدّره رجل ذو عقل كبير ولجيج ، أقل من غيظه أو حزنه اذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة، كأنها لا عقل لها ولا ذكاء لغباوتها ، إذا كان يحبها . فالانسان يغتبط اذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لا يحبه .

(١٦) ان اتفاق الآراء والنظريات لا يؤدي إلى تداني المتفقين قدر ما يؤدي إلى تدانيهم ائتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة . وقد يُظهر المرء امتعاضاً وغيظاً إذا وافقه على رأي يشعر به إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأي الذي شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس ، إلا إذا كان صاحب الرأي سياسيًّا فيخفي غير ما يظهر، لأن همّ السياسي كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم، أو إذا كان صاحب الرأي فيه ذلك الشعور بالنقص الذي يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه، وان كان يخالف ذوقه ومزاجه . ومع ذلك فإن الرغبة في احتكار الرأي لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات .

(١٧) كثيراً ما يدّعي المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو يجيء فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك . فاذا لجّ به هذا الادعاء وألحّ عليه التصنع انقلبت هذه الأمور في نفسه حقائق ومَثَلُهُ مَثَلُ الانسان إذا أوحى إلى نفسه إنه مريض فلا يزال به الإيحاء النفسي حتى يكون مريضاً معتلاً . وكذلك اذا ادّعى على انسان دعوى تستوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف إنها دعوى باطلة ، فإنه لا يلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة في نفسه ، إذا لم يُراجَع مراجعة تؤدي إلى التمام .

(١٨) مما كنت أتعجب له اذن بلوش ، كان كثيراً ما يذم من لا يستحق بعض ذمه أو كله حبًّا للذم لا لسبب آخر . كما انه كان يمدح من لا يستحق كل مدحه أو بعضه وقد يختلف تفسير هذه الظاهرة منه فلعله كان يتخذ من مدح الممدوح وسيلة يخدع بها السامع كي يقبل ذم من يذمه ، إذ أن مدحه الناس قد يُبعد عن الأذهان أنه حقود سيء الرأي في الناس ، فاذا ذمّ بعضهم تلمسوا له عذراً أو لعل التفسير إنه كان يرى في مدح الممدوح تكفيراً عن ذم المذموم ، أو لعلّ الدافعين كانا يتزاحمان في نفسه أو قد يكون المدح والذم استجابة منه

للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على انسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس انسان آخر فيصير مدحاً وهذه الصفات كثيراً تشاهد في الناس .

(١٩) كان «بلوش» يُقسم ويحلف لا أملاً في اقناع الناس بصدق الكذب الذي كان ينمقه بالقسم، فما أظن انه كان يأمل ذلك وإذا كان يُقسم بدافع أشبه بالمستهتر وانسياقاً مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه . وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة في تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم. وكان وهو يحلف يُخيَّل لمن يراه أنه يفيض حناناً ورقة ويذوب لطافة وان كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك وكأنما كان يتغذى من عذوبة الاحساس الغالب عليه الذي دفعه إلى الحلف كذباً – وبعضهم إذا حلف كذباً يخالف عذوبة حلف «بلوش» بالكذب فان بعض الناس من احساسه انه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذباً وكأنه يجادل ويتهم سامعه ويقسم كذباً وكأنه يكاد يلتهم ذلك السامع كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه .

(٢٠) إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم ولكنهم مع ذلك يريدون أن يوهموا أنفسهم إنهم لم يحثوه على قوله ولم يغروه به ولم يلحوا عليه في طلبه ولم يلجئوا معه في الحديث حتى يذكر القول الذي يريدون أن يسمعوه منه. وهكذا فعل دوق «جرمانتس» مع «سوان» عندما أراد ان يسمع منه ان صورة جده من رسم كبار الرسامين المصورين فجعل يقول له لا تعلقني . إذكر الحقيقة ما رأيك في الصورة ؟ فلما ضاق «سوان» ذرعاً قال : إنها كالنكتة الباردة والفكاهة الغثة . فلم يستطع الدوق أن يخفي اشارة تدل على الغيظ لانه لم يظفر بالقول الذي كان يُحب أن يسمعه، بل ظفر بعكس ذلك. والحقيقة هي ان هذا الالحاح كثيراً ما يشاهد في الناس .

(٢١) قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد، ولكنا نأمل ذلك في المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به . ولعلّ هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لا يملكه المضطغن وقد لا يملكه ولكنه قد يوهم نفسه انه ربما حاز بعضه أو كله في المستقبل فيخيل له الوهم كأن الذي فاز به قد سلب منه

أمراً واختلس منه شيئاً يملكه وربما كان من البعيد أو المحال أن يملكه حتى في المستقبل البعيد ، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الأماني الباطلة التي تجعل ما لا يمكن أن يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به .

(٢٢) عندما نتكلم ونسمع كلامنا ، كثيراً ما ننسى أن وقع كلامنا في آذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافاً كبيراً عن وقع كلامنا في آذان غيرنا وفي عقول السامعين ونفوسهم ، فالأثر الذي نظنه لكلامنا في آذان غيرنا يكون في هذه الحالات أثر كلامنا في آذاننا وفي عقولنا ونفوسنا ، وننسى أن السامع قد لا يصله كلامنا إلا من وراء حجاب نفسي وعقلي أو جثماني كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط ماء لجب صاخب ، فيصله مختلف المخرج ، وقد يختلف معناه في ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم ، وهذه حقيقة ينبغي أن لا يغفل عنها المتكلمون ولا سيما من كان معلماً منهم .

(٢٣) إننا إذا قابلنا انساناً يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه ولفهمه ، لا نشعر بسرور كالسرور الذي نشعر به إذا اتجه عقلنا إلى أنفسنا . هذا إلا إذا كان اتجاه عقلنا لسماع المحدث لا يشغلنا عن التفكير في نفوسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعياً إلى التفكير في أنفسنا وفيما يهمنا

(٢٤) بعض المثقفين من ذوي الأدب والحياء يخجلون ويتحاشون أن يعرف جليسهم ومحدثهم أنهم قد اطلعوا منه أو أن الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه . فإذا بدرت من الجليس بادرة سقطة ، استحيوا له خشية أن يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهولون من أمر هذه الزلة ، وقد لا يعيرونها اهتماماً ولكنهم يخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له أن يجرح ظهورها إحساسه ، وهذا منهم من فرط لطافة الحس التي قد تخشى أن يتألم الجليس إذا علم أن الناس قد فطنوا إلى زلته أو سقطته — ومن العجيب أن استحياءه لطافة الحس هذه قد يُفَطِّن الجليس صاحب الاحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها ، وقد يحقد على من استحيى له ، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته ، وقد يكون هذا التصافي والاستحياء عناء لا طائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لا يهتم باطلاع الناس عليها ، ولكنه على أي حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه ، فيتتبع سقطات جليسه كي يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها .

(البحث بقية) ع . ش